((يؤتي الحكمة من يشاء * ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً))[1]

صدق الله العظيم

ـ مقدمة البحث ـ

هذا هو أحد أعلام الفكر الإسلامي، الذي أغنى المكتبة العربية، والإسلامية، بمؤلفاته، وكتبه، ومخطوطاته ورسائله، فقد كانت حياته مليئة بالغموض والمغامرة، فضلاً عمّا عايشه من أحداث سياسية، وتناقضات داخل المجتمع، والمؤامرات، والخلافات التي كانت تسود العلاقات الاجتماعية، والسياسية، لقد اعتكف على نفسه بالمواظبة، والاجتهاد في العلم والمعرفة، فكثر ترحاله من بلاد فارس، والعراق ودمشق، والديار المقدسة، ومن ثم مصر، لقد حفظ القرآن، واطّلع على كتب السيرة، وأراد أن ينقي الفكر الاسلامي من التشويه، والدس، والحشويّة.

وجادل الفلاسفة، ودحض مقولاتهم التي ارتبطت بالعقل المحض، وجاء ليؤكد مع هذا العقل، وبما جاءت به الشريعة ليكون دليلاً واضحاً، وقوياً بما اعتمد عليه بمجادلتهم، فقد سخر العقل بما يتناسب مع الشريعة الإسلامية، وأعاد هيبتها، فانتقد الزهّاد، وأراد من الزهد ،والتصوّف ما هو زهد القلب، وقال إنّ الزهّاد، والمتصوّفة، قد

(١) سورة البقرة ـ الآية (٢٦٩)

obeikandi.com

تركوا لذائذ الحياة فنعم بها الكافر، وعلى الرغم من أنها خلقت للمؤمنين.

وكان أيضاً اعتراضه، واضحاً على «جالينيوس» بأنّ الشمس لا تقبل الانعدام، قد يكون لعدم وجود الأرصاد الفلكية آنذاك، أمّا الغزالي فقد ردّ على ذلك بأنّ الشمس في حالة إنعدام (تخف حرارتها) وممّا أثبته العلم الحديث، هذا ما استقاه الغزالي من الشريعة والمنطق.

وردّ أيضاً على بعض الفرق الإسلامية، كالمعتزلة، والكرامية فكانت حجته ألحن من حججهم وبأدلّة أكثر عقلية، ونقلية.

إنّ رد الغزالي على بعض الفلاسفة، والمتكلمين، ومنهم الفلاسفة الإغريقيين في كتابه (تهافت الفلاسفة) ودحض مقولاتهم حجة بحجة من العقل مستنداً إلى النقل في عشرين مسألة تتعلق بالإلهيات، وحشر الأجساد، وقدم الباري عزّ وجل، ومشكله التنزيه، وإبطال التشبيه، والتجسيم، وما هو مشخّص في بعض الآيات القرآنية، يجيب الغزالي بأنّه تبسيط ليكون في مستوى فكر البشر، وقدر عقولهم فوردت بعض الآيات مثل الآية: (يد الله فوق أيديهم)[٢]

فأراد الغزالي باليد بأنّها فوق الفعل، وغيرها فنفاها الغزالي، واعتنقها آخرون.

كما يجيب الغزالي على بعض المسائل الأخروية، وحشر الأجساد، ونفخ الروح، وكيفيّة محاسبتهم، يستند إلى حديث يقول " كما

(٢) سورة الفتح ـ الآية (١٠)

يرزقهم في الحياة " دون فوضى، وإرباك، وأمّا الروح (قل الروح من أمر ربي)[٣] كما كانت تقول عليها مسائل كثيرة، والمخاض فيها ليس بالأمر اليسير، وكذلك النفس، وهذا ما هو موجود في متن هذه الدراسة وفصولها.

وإنّ كتاب تهافت التهافت لابن رشد رد مباشر منه على الغزالي لكتابه (تهافت الفلاسفة) ويتتبعه فقرة فقرة، ويبدي رأياً حول المسائل العشرين، باستثناء المسألتين التاسعة عشر والعشرين، واللتين تتعلقان بمسألة البعث وحشر الأجساد، وحدها أم مع النفوس معاً، ويفضل ابن رشد عدم الجدال في تلك المسائل لأنها من مسائل الإلهيات ولا تتدخل الفلسفة فيها وليس من علمها والجدير ذكره أيضاً أن كلمة تهافت كما جاء في لسان العرب بمعنى تهافت الفلاسفة أي تساقط أقوالهم.

لقد كان الغزالي متعطشاً إلى الحقيقة وأخذ الشك يمخر عباب ذاكرته.

ولقد لعب الشك في حياة الغزالي دورين هامين.

١ـ دوراً كان فيه الشك خفيفاً من النوع الذي يعتري كثيراً من الباحثين وصولاً إلى المعرفة.

٢. دوراً كان فيه الشك عنيفاً هدّاماً من النوع الذي يعتري كبار الفلاسفة والمفكرين.

---

(٣) سورية الإسراء ـ الآية (٨٥)

obeikandl.com

ففي البدايات كان شكّه في التدقيق، والمراجعة مستعيناً بالحواس، والظواهر وهذا الشك أيضاً يدفعه لأن يكون الميزان لهذه المسائل، ويوازن بينهما، بما هو محسوس، وبما هو عقلي وواقعي. ويقول «برتدراند رسل»:

(لم أكن مخطئاً بأن ثمة شيئاً اسمه الحقيقة وأنها تستحق الانتماء إليها، وأن إقامة عالم حر لإنسان سعيد أمر ممكن وأن العمل من أجل تحقيق هذا العالم يستحق كل هذا العناء)

والإشكالية التي يصل من خلالها الغزالي بأنّ هذه البراهين في صحة القياس، وأن براهين الإلهيات كبراهين الهندسيات، فالأولى لا تنتهي عند حال الفلاسفة إلى حد ما، مما يدعو الغزالي إلى أن يترك هذه المجادلة، وبالتالي ما تذكره المراجع أنه قد ألّف كتابه {التهافت} في تلك الفترة من شكه، وهي التساقط لأقوال الفلاسفة وبمفهومه أنها تدور في حلقة مفرغة.

وهذا الشك أيضاً دفعه لكي يعرف عن حال المتصوّفة، وبالوصول إليهم، ومحاورتهم بأنّ هذه العلوم من خلال الكشف، والمعاينة، والاتصال بعالم الملكوت، وذلك لم يأت من فراغ، إلا من العمل، والعلم، وهذا ما دعاه لأن يهيم على وجهه، ويذهب إلى الصحراء، والقفار متنقلاً من بغداد إلى دمشق، وإلى الحجاز، ومصر، هروباً من الناس، والتزاماً بالخلوه، وتطبيقاً لمشورة المتصوّفة، وطريقتهم حتى يستوي لديه وجود الشيء، وعدمه، ويمكن تقسيمها إلى ثلاث فترات.

١) **الفترة الأولى**: التي سبقت شكه، فلم تكن طويلة، ولم يكن قادراً على الإنتاج الفكري بعد.

٢) **الفترة الثانية**: كانت فترة تدريسه في (نيسابور، وبغداد) وألّف فيها {الباطنية} و{نقد الفلسفة}.

٣) **الفترة الثالثة**: وهذه يمكن لنا أن نقول عنه متوازناً، ويدرس الحقيقة، وهو شاكّ فيها، فكان يهدم آراء الفلاسفة ليقيم على أنقاضها مذهب التصوّف، أو ربما يريد مناصرة الرأي الكلامي، وهدم الفلسفة، وليس لإقامة المذهب الصوفي، وكان ذلك عند تأليفه قواعد القواعد في علم الكلام.

فهل كان محقاً في ذلك في تأليف تهافت الفلاسفة الذي كان يطلب من ورائه الشهرة، فيذهب بالمذهب الذي يجلب له المنفعة والجاه، فالأوضاع آنذاك كانت السنة يضيقون ذرعاً بالمعتزلة والفلاسفة.

ويجيب الغزالي موضحاً من كلامه، وما يجول في نفسه في أقواله عندما همّ بالخروج من (بغداد) فيقول إنّها غير خالصة لوجه الله تعالى باعثها، ومحركها هو طلب الجاه، وانتشار الصيت.

كما أردت من خلال البحث التنقيب عن الفكر الفلسفي الإسلامي لأحد أعلامه،ومفكريه، وهو حجة الإسلام الإمام الغزالي، وخاصة في مسألة العقل، والنقل (الفلسفة والدين) ومرتبة العقل، وشرفه التي شرحها في إحياء علوم الدين، وكذلك مسألة العقل مع

الدين المسيحي، واليهودي ليكون البحث مستوفياً أغلب شروط المعرفة ولا ندّعي كلها.

نسأل الله أن يوفقنا بما يمكن أن نوضحه من خلال هذه الدراسة لنبيّن للقارئ الكريم أن للعرب فلسفة، وحضارة، ولا تقتصر كلمة الفلسفة على الإغريق بل وكانت الفلسفة العربية قبل ذلك، لأن هذه الحضارات التي تكوّنت أنشأت فلسفة ومنظومة فكرية استطاعت أن ترسم ملامح التطوّر والمعرفة وعلاقتها مع الموجودات، والتشخيص لما حولها، وأغلب منشآتها لا تزال شاهدة على عظمة ذلك ولا نستجدي الغرب الاعتراف بحضارتنا، ولا أدّل على ذلك من أسماء المجرات والكواكب التي هي بأسماء مكتشفيها العرب ويرددها الغرب.

والله من وراء هذا القصد

الباحث

عيد الدرويش

oberikandi.com